المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

رحلة ابن جبير

و

رحلة ابن بَطُّوطَة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

محاضرتان ألقيتا بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر
فى يومى ١٢ و ١٩ مايو سنة ١٩٣٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

رحلة ابن جبير

للدكتور محمد مصطفى زيادة
أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

محاضرة ألقيت بدار مكتب التبادل الثقافي للمغرب بمصر
في يوم الجمعة ١٢ مايو سنة ١٩٣٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

رحلة ابن جبير

وَرِثت الدولة الإسلامية من إمبراطورية الرومان القديمة معظم أقاليم البحر الأبيض المتوسط ، كمصر وشمالى إفريقية والأندلس وصقلية والشام والعراق الأعلى ؛ واستخدمت وسائل الحكم ونظم الإدارة الرومانية بهذه الأقاليم المفتوحة لتدعيم سلطانها الجديد هناك ، ومن تلك الوسائل الطرقُ الرومانية المعبّدة ، ونظام البريد الذى ينم اسمه عن أصله اللاتينى ڤيرِيدى (Veredii) ومعناه خيل البريد ، والدينار وهو معرب اللفظ ديناريوس (Denarius) . على أن دولة المسلمين قد فاقت إمبراطورية الرومان فى فتوحها وأملاكها ، وقد استلزم ذلك فضلاً عما كان هنالك من قبل كثيراً من طرق البريد ومطالعه وموظفيه ، مما توجد تفاصيله فى الكتب العربية التى أُلِّفت لإرشاد العاملين فى تلك الناحية من الإدارة الإسلامية ، وهذه الكتب هى أول ما كتب المسلمون فى وصف البلاد التى خضعت لحكمهم .

على أن اهتمامَ المسلمين بجغرافية فتوحهم وما يجاورها من البلاد ، وتأليفَهم وترجمتَهم للكتب فى الجغرافية الوصفية ، لم ينشأ عن ضرورات الإدارة والبريد وضبط الضرائب فحسب ، بل كان لتأدية فريضة الحج ، والتجارة فى البر والبحر ، والاشتغال بالجغرافية كَعِلم لأجل ذاته ، وحب الرحلة لتدوين المشاهدات ، أثرٌ ملموسٌ فى عدد المؤلفات التى وصلت إلينا من تراث المسلمين . ومن هذه كتابُ رحلة ابن جبير المعروف باسم "تذكِرةٌ بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" ، الذى كتبه مؤلفه حوالى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وتداولته أيدى القراء مخطوطاً

فى الشرق والغرب ، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت (William Wright) الإنجليزى سنة ١٨٥٢ م ، وراجعه بعده دى خويه (De Goeje) الهولاندى سنة ١٩٠٧ ، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم :
(Travels of Ibn Jubayr. E. J. W. Gibb. Mem. Series. V. 1907.)

كان ابن جبير عربيا أندلسيا ، واسمه أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، وقد وُلِد فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره . ثم استخدمه أميرُ غرناطة أبو سعيد بنُ عبدِ المؤمنِ ملكِ الموحدين فى وظيفة كاتمِ سرّه ، فاستوطن من وقتئذ غرناطة . ويقال إن الأمير أبا سعيد استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدّ يده إليه بقدح من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع ، فأقسم عليه الأمير يميناً مغلّظة ليشربنّ منها سبعاً ، فشربها صاغراً ، ثم ردّها عليه أبو سعيد سبعَ أقداحٍ من الدنانير . لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته ، وأقام فى سفره سنتين ، ودوّن مشاهداتِه وملاحظاتِه فى يوميّات هى المعروفة برحلة ابن جبير ، فجاءت مدوّنة وافية لجميع ما شاهده ، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التى مرّ بها ، وقاموساً لمصطلح عصره فى بناء السفن والملاحة البحرية ، وَثبتاً بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وهذا فضلا عن أنها كانت — على ما يظهر لى — كتاب دعاية لدولة الموحدين ، تمنّى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتدّ نفوذ تلك الدولة شرقاً إلى مصر والحجاز .

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمدُ بن حسان ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير ، سنة ١١٨٣) ، إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغرّ) ؛ وعبر البحر من هناك إلى سبتة (Ceuta) ، فألفى بها سفينةً للجَنَوية

(Genoese) مقلعةً إلى الإسكندرية ، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير).
وسارت السفينة عَبْر الزقاق (Gibralter) مساحلة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية (Denia) ، ثم اتجهت غرباً فمرّت بجزائر مَيورقة ومِينورقة وسَرْدانية ؛ وطرأ عليها قبالة بَرّ سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أتت ، ثم استطاع رائسُها أن يصل بها إلى الشاطئ السرداني ، فجدّد المسافرون هناك الماء وامتاروا . ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية ، فوصلت إليهـا على متن ريح عاتية ، وأرست على شاطئها عنـد موضع لم يذكره ابن جبير ؛ ثم فارقت برّ صقلية واتجهت غرباً حتى حاذت برّ جزيرة إقريطش (Crete) تقديراً لا عياناً ، واستقرّ بها النوَى أخيراً عند الإسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس) ، أى أنها استغرقت فى سفرها من جزيرة الطريف إلى الإسكندرية ثلاثين يوماً .

كان أولَ ما شاهده ابنُ جبير بثغر الإسكندرية أن طلع أمنـاء السلطان — وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبى — إلى المركب ، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحداً واحداً ، لتقييد أسمائِهم وصفاتِهم و بضائِعهم قبل النزول إلى البرّ . وقد آلم ابن جبير أن يُطلب إلى المسافرين — وهم حجاج مسلمون لم يستصحبوا معهم سوى زادِ طريقِهم — أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم ، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليـه الحول . ثم طاف ابن جبير بالمدينة ، فزار المنـار ، وصلى بالمسجد المشيّد فى أعلاه ، وشاهد بقايا العمائر البطليموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء ، كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد ، وربما كانت مبنيةً بعضَها فوق بعض . وقد شاهد ابن جبير وهو بالإسكندرية دخولَ جماعةٍ كثيرةٍ من أسرى الحملة الصليبية الجريئة التى كان أرناط (Renaut de Châtillon) صاحبُ الـكرك ، قد أنفذها ذلك العام فى البحر الأحمر لغزو بلاد

العرب والاستيلاء على مكة والمدينة ، ليصيبَ المسلمين فى مقتلهم ، وصلاح الدين بعيد فى شمالى الشام ؛ وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قاربت سفنها ساحل الحجاز ، وكان أولئك الذين شاهدهم ابن جبير من الأسرى جزءاً مما وقع فى أيدى المسلمين من جنودها .

إنما يُلاحظ أن ابنَ جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضاً ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنويين على يد عُمّال صلاح الدين بالإسكندرية ، وهـذا نقص يؤسف له ، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلمه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين فى الموانئ الإسلاميـة من جديد ، ولأوجب عليهم القصد فى العبارة المتواترة فى كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين فى الموانئ الإسلامية كان من أكبر الأسباب التى أثارت أوربا للحروب الصليبية .

ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ إبريل) إلى القاهرة ، حيث نزل بفندق أبى الثنـاء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو ابن العاص . وأقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار فى أثنائها مسجد الحسين ، حيث رأى فى جدار الحائط الذى يستقبله الداخل حجراً شديد السواد ، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الحديثة الصقل . ثم زار القرافة ، ومسجد الشافعى ، والمدرسـة الناصرية التى بناها بجواره السلطان صلاح الدين ، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة ، "يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها" . ولقد لقى ابن جبير شيخ هـذه المدرسة وهو نجم الدين الخبوشانى ، ولم يلق من رجال مصر سواه ؛ وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضى الفاضل ، ووصف لنا بعض أولئك الرجال

الذين أسسوا الدولة الأيوبية فى مصر ؛ على أنه لم يفوّت مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته فى بلاد الشرق الأدنى ، وقد صوّره فى عبارة أنيقة دقيقة فقال : " إنه لا يأوى لراحة ، ولا يخلُد إلى دَعَة ، ولا يزال سَرْجُه مجلسَه ... ؛ وسمعنا أحدَ فقهاء ... المسلمين بسُدّة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه ... ثلاثَ مناقبَ فى ثلاثِ كلماتٍ حكاها عنه ... إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه ، أما أنا فَلأَن أُخطِئْ فى العفو أحبُّ إلىَّ من أن أُصيب فى العقوبة ... ؛ وقال أيضاً ، وقد تُنوشدت بحضرتِهِ الأشعار ، وجرى ذكرُ مَن سَلَف من أكارم العرب وأجوادهم ، والله لو وَهَبْتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرُها له ، ولو استفرغتُ له جميع ما فى خزائنى لما كان عوضاً مما أراقه من حرّ ماء وجهه فى استمناحه إياى ... ؛ وحضره أحد ممالكه المتميزين (كذا) لديه بالحُظوة والأَثَرة مستعدياً على جمّال ذكر أنه باعه جملا معيباً ... ، فقال السلطان له ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاضٍ يحكم بينهم ، والحقّ الشرعىّ مبسوطٌ للخاصة والعامة ... ، وإنما أنا عبد الشرع ... ، فالحق يقضى لك أو عليك ... ".

هذه صورة لصلاح الدين الذى تمّ على يده تأسيسُ الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وكان له الفضل فى إعادة السنية إليهما . وكان صلاح الدين قد أبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبنى العباس منذ المحرم سنة ٥٦٧ (سبتمبر سنة ١١٧١) ، وقد لحظ ابن جبير ذلك فى كثير من الاغتباط ، وترك فى يومياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة ، إذ " يأتى للخطبة لابساً السواد على رَسْم العباسية ، وصِفَةُ لباسِهِ بُرْدة سوداء عليها طيلسان شَرْب أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام ، وعمامةٌ سوداء ، متقلّداً سيفاً ؛ وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يُسمع بها الحاضرين ،

كأنها إيذانٌ بالإنصات ، وفى توسّطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة ، ثم يسلّم على الحاضرين يميناً وشمالا ؛ ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيعُ بياض ، قد رُكّزتا فى أعلى المنبر" . وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة ، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم "يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قَوَمة المؤذنين ، وبين يديه ساعياً أحدُ القَوَمة ، وفى يده عود مخروط أحمر قد رُبط فى رأسه مَرَسٌ من الأديم المفتول رقيقٌ طويل ، فى طرفه عَذَبةٌ صغيرةٌ ينفُضُها بيده فى الهواء نفضاً فتأتى بصوت عال يسمع من داخلِ الحرم وخارجه ، كأنه إيذان بوصول الخطيب ، لا يزال فى نفضها إلى أن يَقْرُبَ من المنبر ، ويسمّونها الفرقعة" .

وبما شاهده ابن جبير بالقاهرة القلعة ، ولما يكتمل بناؤها ، كما عاين سور القاهرة والخندق المحدق به ، والقناطر التى ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الإسكندرية الصحراوى ؛ وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش . وقد بيّن ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتّخذ من القلعة سكناً وحصناً ، وأن يُمدّ فى السور حتى ينتظم مصر والقاهرة ، وأن يجعل من القناطر سدًّا يدفع به عادية الطامعين فى مصر من أهل المغرب و بقايا الفاطميين ؛ ولاحظ أيضاً أن جميعَ المسَخَّرين لتلك المنشآت كان من أسرى الفرنج . وهذا كله صحيح متواتر فى المراجع المعاصرة ، وهو دليل على دقةِ ابن جبير وصحةِ استقصائه . غير أنه قرّر وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر ، وشرح رسم أولهما ، وقال إن الثانى على مثل ذلك الرسم بعينه . على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستاناً ما على نسق ما ابتناه مخدومه نور الدين بن زنكى بدمشق ، ما عدا أنه أمر بأن تُعمَلَ خزانة الأشربة التى كانت للقصر الكبير الفاطمى مارستاناً للمرضى . ولعل ابن جبير رأى فعلا مارستان أحمد بن طولون

بين القاهرة ومصر ، فظنه أيضاً من مستحدثات صلاح الدين ؛ وكان جامع ابن طولون قد تحول فى ذلك العهـد إلى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحلقون فيه ، أى يعقدون حلقات الدرس به .

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة ، ووصفها وصفاً يدل على أنها كانت فى أيام صلاح الدين مثلما هى عليه الآن تقريبا ؛ وسمّى هرمى خوفو وخفرع باسم "الكبيرين" ، وهرمَ منقرع باسم "الصغير" ، وذكر أنه كان دون هذا "الصغير" خمسة صغار متصلة ، فكأنه رأى الهرم الرابع ، كما رأى تمثال أبى الهول ، وسماه باسم "أبى الأهوال" . وقد زار ابن جبير عدا ذلك بلدة الجيزة ، وجزيرة الروضة ، ومقياس النيل ، وجامع عمرو بالفسطاط ، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بها الصليبيون فى أواخر أيام الدولة الفاطمية .

ثم سافر ابن جبير من القاهرة فى النيل إلى قوص ، فاجتاز على مدن الصعيد دون أن ينزل بإحداها ، ما عدا المدن التى توقّفت المركبُ عندها بأمر السلطات المحلية ، كمِنْيَة ابن خصيب وأسيوط وأخميم ، حيث أُحْصِى المسافرون واستُدْفِعوا الزكاة عن ما لديهم من المال كما حدث بالإسكندرية . وقد وصف ابن جبير هذه المطالب المتكررة بأنها سَرقة مُقَنَّعة ، و"إدخال للأيدى إلى أواسط التجار" .

ووصل ابن جبير إلى قوص يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ٥٧٩ (١٩ مايو سنة ١١٨٣) ، فوجدها حفيلة الأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحبشة . ثم فَصَل منها إلى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور ، وهو طريق التجارة الدولية فى الفُلُفل وأنواع البهار التى انبنت على مكاسبها عظمة الدولتين الأيوبية والمملوكية ، كما انبنت عظمة الإمبراطورية البريطانية على تجارة الشاى وتوابل الهند فى القرن الثامن عشر .

ولا مبالغة فى وصف ابن جبير لضخامة تلك التجارة ، حين قال إنه رام فى هذه الطريق "إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكّن ، ولا سيما القوافلَ العيذابية المتحملة لسلع الهند ، الواصلةَ إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب .... من .... أحمال الفلفل ؛ فلقد خيّل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة" .

وقد امتدح ابن جبير أحوال الأمن العام فى هذا الطريق ، حين قال : "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمالَ الفُلفُل والقِرْفةِ وسائِرها من السلع مطروحةً لا حارس لها ، تتْرَك بهذا السبيل إما لإعياء الإبلِ الحاملةِ لها أو غيرِ ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضِعها إلى أن ينقلَها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المارّ عليها من أطوارِ الناس" .

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها إلى جدة ، فاكترى مكانا فى إحدى السفن المُخَصَّصة لنقل الحجاج بين الثغرين ، واسمها الجلابُ والواحدة جَلبة . وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفاً فريداً فى مؤلفات المسلمين ، فقال بأنها "مُلَفّقة البناء ، لا يستعمل فيها مسمار ألبتة ، إنما هى مخيطة بأمراس من القُنْبَار ، وهو قشر جوز النارجيل ، يدرّسونه إلى أن يتخيّط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ، ويخلّلونها بدُسُرٍ من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سَقَوها بالسمن أو بدُهن الخروع أو بدهن القِرْش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم ، ومقصدهم فى دهان الجلبة لِيَلِيْنَ عودها ويرطَب ، لكثرة الشِّعاب المعترضة فى هذا البحر ، ولذلك لا يصرّفون فيه المركب المسمارى . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرُعَها منسوجةٌ من خوص شجر المُقْل ، فمجموعها متناسب فى اختلالِ البنيةِ ووهنِها" . على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم ، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب ، حتى يجلسَ بعضُهم على بعض كأنهم فى أقفاص الدَّجاج ، فيستوفى صاحب الجلبة منهم

ثَمَنها فى سفرة واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ؛ وكان أصحاب تلك السفن يقولون علينا بالألواح (ألواح السفينة) وعلى الحجاج بالأرواح . والواقع أن هذه السفن لم تَخْلُق فى نفوس الحجاج شيئاً من الطمأنينة ، وكفى قول ابن جبير فى هذا الصدد إنه وأصحابه فى هذه الرحلة ماتوا مرارا وحَيُوا مرارا .

ثم فَصَل ابن جبير من جدة يوم ١١ ربيع الآخر ٥٧٩ (٢ أغسطس سنة ١١٨٣) قاصداً مكة ، فوصلها بعد ثلاثة أيام ، ودخلها من باب العمرة ، وطاف بالكعبة طواف القدوم . ثم طفق يتعرّف على أماكن الزيارة ، وقد ترك وصفاً دقيقاً ضافيا المسجد الحرام ومكة نفسها فى سبعين صفحة من كتابه ، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها فى أواخر القرن السادس الهجرى . ويتخلّل هذا الوصف ملاحظات لابن جبير ذات أهمية فى دراسة التاريخ الإسلامى : منها أن أهل الحجاز عامة كانوا يعتبرون الحجاج — وليس موسم الحج — من أعظم غلاتهم التى يستغلّونها ، ينتهبونهم انتهابا بأنواع المكوس ؛ وأن مُكثراً الحسنى أمير مكة فى ذلك الوقت ، لم يشُذ عن بقية أهل الحجاز فى جشعهم وترويعهم للحجاج ؛ وأنّ ما أحدثه السلطان صلاح الدين من إبطالِ هذه المكوس ، وتعويضه أمير مكة بمال وطعام يرسله إليه كل سنة ، عدا إقطاعات عيّنها له بصعيد مصر ، قد خفّف كثيراً من متاعب الحجاج .

ومن ملاحظات ابن جبير أيضاً أن أشراف مكة كانوا على مذهب الزّيدية ، يَزِيدون فى الأذان "حى على خير العمل" ، ولا يجتمعون مع الناس فى الصلاة ، إنما يؤمهم إمام خاص . ومن ملاحظاته أيضاً عادة التهنئة بالهلال الجديد عند أهل مكة ، يتصالحون ويتغافرون ويدعو بعضُهم لبعض كفعلهم فى الأعياد ؛ وكان الأمير مكثر يُبَكّر إلى الحَرَم فى أوّل كل شهر بحاشيته وقواده وحَرّابته لاستقبال التهنئة بالشهر الجديد ، باعتباره السلطان الحاضر

فى مكة . على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية ، فيدعو خطيبُ الجمعة للخليفة ، ثم لأمير مكة ، ثم للسلطان صلاح الدين ولولى عهده وأخيه العادل أبى بكر . وقد لاحظ ابن جبير فى صلوات الجمعة بمكة أنه عند ما يأتى الخطيب على ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان ، اعترافا بفضله على العالم الإسلامى عامة ؛ ولا عجب أن يُفردَ أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهالعة ، فقد هدم الدولةَ الفاطميةَ ودعوتَها من مصر بغير حرب ، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل ، وهذا فضلا عما بلغه من التوفيق فى الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهدِه .

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مَقْدَم الملكِ سيفِ الإسلام طغتكين أخى صلاح الدين من مصر ، وكان فى طريقه إلى اليمن التى دانت للأيوبيين ؛ وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفاً دقيقاً ، حيث مشى الأمير مكثر إلى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع ، والناس فى موسم الحج من جميع الأقطار على جانبى الطريق ، وفى ذلك دلالةٌ على أن هيبةَ الدولةِ الأيوبيةِ كانت تفوق كل هيبة فى عصرها .

إلى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريباً ، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه فى وصف معالم مكة قد كتب عن رَوِيّة وتحقيق . ثم أهلّ شوال ، وهو فاتحة أشهر الحج ، فحج ابن جبير وترك فى مدونته وصفا دقيقا لجميع المناسك والمراسيم فى عصره ، وذكر فى خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذاك العام من الرجال والنساء . ثم رحل إلى المدينة ، وأكمل حِجته بزيارة المسجد النبوى ، كما أكمل كتابه بوصف ذلك المسجد الشريف ، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع إلى وطنه . غير أنه لم يرجع من حيث أتى ، بل رافق الركّب الشاملَ لحاج العراقِ وخراسانَ وكردستانَ والشام ؛ فسار إلى العراق فى ٨ المحرم سنة ٥٨٠ (٢١ إبريل سنة ١١٨٤) ، واتبع طريقا

طويلا إلى الأندلس ، فأضاف إلى مؤلفه قيمة جديدة بما دوّنه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثغور البحر الأبيض المتوسط فى عصره ، كما سيلى .

مرّ ابن جبير فى طريقه إلى العراق بالقادسية ، وكانت إبان الفتوح الإسلامية الأولى ثغراً من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبى وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم ؛ وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائقُ من النخيل ، ومشارعُ من ماء الفرات . ثم نزل على الكوفة ، وهى المدينة التى أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكراً دائماً للمسلمين فى فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الإسلامية فى خلافة على ، وفى أوائل أيام الخلافة العباسية أيضاً ؛ وألفاها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر . ثم رحل إلى الحلّة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبارٍ متصلةٍ من الشط إلى الشط ، تحفّ بها من جانبيها سلاسل من حديد قد ربطت إلى خُشُب مُثْبَتَة فى كلا الشطين ؛ وقد اجتاز ابن جبير بقرب الحلة جسراً ثانياً على نهير يسمى النيل ، وهو أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير إلى المدائن ، عاصمة الدولة الفارسية قبل الإسلام ، فوجدها خراباً . ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يوماً ، وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ، كما شاهد بجهاتها كثيراً من الخراب مما جعله يقرر فى يومياته أن بغداد " وإن لم تزل حضرةَ الخلافة العباسية .... ، قد ذهب أكثرُ رسمِها ، ولم يبق منها إلا شهيرُ اسمها " . وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالإضافة إلى ما جاء فى كتاب الخطيب البغدادى مثلا أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول على يد هولاكو

وجنوده ، يرجع إليه المؤرخ ليقارن بينه و بين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها . وفضلا عن ذلك ففى ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة فى أحوال الخلافة العباسية فى أواخر القرن السادس ، منها وصف الخليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخليفى ، فإذا به "فى فَتَاء من سنّه ، أشقرُ اللحيةِ صغيرُها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسنُ الشكل ، جميلُ المنظر ، أبيضُ اللون ، معتدلُ القامة ، رائقُ الرّوَاء ، سنُّه نحوُ الخمسِ وعشرين سنة ، لابساً ثوباً أبيضَ شبهَ القِباء ، برسومٍ ذهبٍ فيه ، وعلى رأسه قَلَنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية ... متعمداً بذلك زىّ الأتراك" . ومن ملاحظات ابن جبير فى بغداد أيضاً أن جميع العباسيين كانوا فى الواقع معتقلين فى دورهم اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسِه وزير فى ذلك العصر ، إنما له قَيِّمٌ يُعرف بالصاحب الأستادار ، يقوم على جميع شؤون الدور الخليفية ، ويُدْعى له إثر الدعاء للخليفة . هذا ولابن جبير ملاحظة عامة فى أهل بغداد ، وهى أنهم كانوا — كأهل روما فى أواخر أيام الدولة الرومانية — "لا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنّع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يَزْدَرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ... قد تصوّر كل منهم فى معتقده وخَلَده أنّ الوجود كلّه يَصْغُر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم" .

ترك ابن جبير بغداد إلى الموصل يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ (٢٨ مايو سنة ١١٨٤) صحبة من بقى من الحجاج من أهل الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمّر على الركب سلجوقة خاتون زوج نور الدين صاحب آمد ، وخاتونُ

أم عز الدين صاحب الموصل . فمرّ بسامرّا ، وهى سرّ من رأى عاصمة العباسيين أيام المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبرةَ من رأى ، قد استولى عليها الخراب إلا بعضَ جهاتٍ قليلة . ثم وصل تَكْرِيت ، وهو البلد الذى ولد فيه السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئةُ بنى أيوب قبل أن يتّصلوا بعماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود بالشام . ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ، وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ، ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدنيوية المريبة ، ولعله لم يعجبه بروزُ نساء البلدِ راكبات لاستقبال الأميرة وهى تدخل المدينة فى عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما راقه ما رآه بالموصل نفسها من حصونٍ ومدارسَ وجوامعَ ومارستاناتٍ .

ثم رحل ابن جبير إلى نَصِّيبين ، ومنها إلى دارا ، فماردينَ ، فدنيسر ، فرأس عين التى سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون بقربها . ولابن جبير ملاحظة لطيفة بصدد أمراء تلك البلاد ، إذ شبههم بملوك الطوائف بالأندلس ، "كلهم قد تحلّى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة ، وصفاتٍ لذى التحصيل غير طائلة .... ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتّصف بصفةٍ هو بها خليق" ، إلا صلاح الدين الأيوبى الذى أفرده ابن جبير فى كل مناسبة بما هو قمين به من التبجيل ، فقال إن هذا "اسم وافق مسمّاه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فزعازعُ ريح ، وشهاداتٌ يردّها التجريح" .

ثم وصل ابن جبير إلى حرّان ، فألفاها اسما على مُسمّى من شدة مالاقاه من حرّها ، ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشْتُقّ اسمه من هوائه ؛ ثم رحل منها إلى سروج التى نَسب الحريرى إليها أبا زيد السروجى بطلَ مقاماته . وعَبَر ابن جبير الفرات عند سروج إلى قلعة نجم ، التى عرفت قبل باسم جسر منبج ، وصار بذلك فى مملكة صلاح الدين الأيوبى ؛ على أنه لم يشأ أن يفوّت تلك الفرصة

بدون أن يقرّرَ أن حدود النفوذ الأيوبى كانت أبعد مدى من ذلك الحد الجغرافى ، وأن سيادة صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة فى جميع البلاد التى مرّ بها من الموصل إلى سروج .

ثم قصد ابن جبير إلى حلبَ عن طريق الرحبة ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بصدد حلبَ إنها سميت بذلك الاسم لأن إبراهيم عليه السلام كان يحاب عندها غنمًا له ، ويتصدّق بلبنها ، على أنها كانت حسبما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية من منشآت الحيثيين ، واسمها فى لغتهم حلاّب ، ومنها اسم حاب الحالى .

ثم رحل ابن جبير من حلبَ إلى دمشق ، فمرّ على قِنّسرين وتل تاجر وباقدين ، وتَمْنى والمعرة وجبل لُبنان ، وحَماة والرّسْتَن وحمص ؛ وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن مارستان ، وأن جميع الخانات التى أوى إليها فى طريقه كانت كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأمنا . ووصف ابن جبير الجامع الأموى بدمشق وصفا بديعا وأتى على تاريخه تفصيلا ، كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به ، وسماها المنجانة كتسمية أهل الأندلس فى ذلك العصر للساعات الدقاقة التى اشتهرت بها بلادهم . على أن عبارات ابن جبير بصدد ما شاهده بدمشق من المبانى والمآثر تشتمل على ملاحظات له ذات أهمية كبرى فى معرفة الحال الدينية والاقتصادية بالشام والشرق الأدنى فى ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة والزيدية والإمامية والإسماعيلية والنصيرية والغُرَابية وغيرها ، وفى ذلك دليل على أن الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب ريحهما تماما على يد صلاح الدين ؛ على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة من الطوائف السنية التى نشأت لمناهضة الشيعة فى ذلك العصر ، وهى طائفة النُّبُوية ، وكانت تدين بالفتوة ، وتكفى الإشارة هنا إلى الفتوة وسراويلها فهى موضوع يحتاج حتى الآن

لبحث طويل ، بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر عليه ليوضحه للناس .

أما ما جاء فى ابن جبير هنا بشأن الحال الاقتصادية بالشام فهو أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تُعَطِّل من حركة التجارة بين رعية الفريقين فى أنحاء البلاد ، وقد دلَّل على ذلك بما شاهده من نشاط وتبادل بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتئذ بحرب أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : " ومن أعجب ما يُحَدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المُصاف بينهم ، ورفاقُ المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا فى هذا الوقت ... من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ... فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصارُه ، واختلافُ القبائل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحدٌ منهم ولا يُعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبةٌ يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأَمَنَة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سِلَعهم ، والاتفاقُ بينهم والاعتدالُ فى جميع الأحوال ، وأهلُ الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد " . هذا وإنى أحيل من يطلب المزيد فى هذا الموضوع إلى مذكرات أسامة بن منقذ الشيزرى المعروفة باسم كتاب الاعتبار ، وإلى قصة الطّلسم التى رُتّبت حديثاً ليرى أن الحروب الصليبية لم تفسد كثيرا من العلاقات الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيراً أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق إلى عكا بعد إقامة شهرين وزيادة ، ليركب البحر منها إلى بلادِه ، ولا يكاد القارئ يأتى على الجملة الأولى من يوميات ابن جبير بصدد عكا حتى يأتى على عبارة فيها التفات ، وهى أن أسفار السفن من عكا فى الخريف — وهو أحسن أوقات السفر حين ذاك — كانت تعرف عند أهل الشام باسم "الصليبية" ، لتصليب أشرعة السفن موافقة للريح فى تلك الأسفار ، فهل استُمِدَّ اسم الحملات والحروب الصليبية — التى كانت على أشدها إبان ذلك الوقت — من ذلك الاسم العربى ، فجاءت تسميةً دقيقة ، وَرَمْيَةً من غير رام ؟ هذا وقد سجّل ابن جبير فى ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق إلى عكا ، وهو فى أرض الصليبيين ، أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس إضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد ، وأن أصل ذلك المَكْس أن فئاتٍ من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكى فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية . وأهمية ذلك كله أن هنا مادة تاريخيةً لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون إلى نداء نور الدين ، ولتقرير ما خفى على بعض المؤلفين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم الموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت فى الواقع بالأندلس قبل أن تمتد إلى الشام .

ووصل ابن جبير عكا فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ (١٨ سبتمبر سنة ١١٨٤) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبّهها ابن جبير فى العِظم بالقسطنطينية التى لم يرَها . ثم عَلِم أن مركبا فرنجيا على وشك الإبحار من مدينة صور إلى بجاية بتونس ، فذهب إلى صور يريد السفر ؛ غير أنه استصغر المركب ، فرجع إلى عكا بحراً ، واكترى هناك مكاناً فى سفينة جَنَوية ، قَصْدُها مَسِّينة

بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر سنة ١١٨٤) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التى أنشأتها المدن الإيطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى ؛ وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم البلغريّين ، وهو تعريب حرفى تقريباً للكلمة اللاتينية (Peregrini) ، أو الإيطاليــة (Pellegrini) ، ومعناها الحاج فى هاتين اللغتين ؛ كما قرر ابن جبير أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتّخذ من السفينة مكاناً مستقلا ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج إليــه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والجبن . وقد ذكر ابن جبير أيضاً بصدد هذا السفر أن عدداً من حجاج المسلمين والنصارى توفى على ظهر السفينة ، فقُذِفوا فى البحر ، وَوَرِثَهم رائس المركب ، إذ كانت العادة أنه لا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه إذا مات فى البحر .

استغرقت تلك السفينة فى سفرها إلى مسينة شهرين ، وكان أقصاه فى العادة خمسة عشر يوماً ، فأرست على الشاطئ الصقلى يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠ه (٩ ديسمبر ١١٨٤) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبراً فى قيادة السفينة وإبدال ما تكسر من شُرعها وقلاعها فى عرض البحر ، مما وصفه ابن جبير فى دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه فى هذا الصدد وثيقة فى شرح فنون البحر فى العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبى إيطاليا تابعــة وقتئذ للنورمان (الشماليين) ، الذين أتوا فى أوائل القرن الحادى عشر من بلاد نورمانديا إلى جنوبى إيطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة فى حروب الدويلات اللمباردية والولايات البيزنطية هناك ؛ وقد برّزت الحوادث من بينهــم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذى تملّك على تلك البلاد وأسس منها مملــكة واحدة ، ثم امتدّت أطماعه

إلى صقلية الإسلاميــة ، فانتزعها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عاماً .

ويعتبر النورمان فى التاريخ من طلائع النشاط الذى حرّك أوربا إلى دَفْع المسلمين عن فتوحهم المطلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعــدِ استيلائهم على صقلية فى الحروب الصليبية أيضاً ، وهدموا الدولتين الزّيْرية والحَمّادية بإفريقية ، واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ، كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية فى صقلية ، بحــكم وضعها الجغرافى والزمنى ، هى فى الواقع أوج نمــاذج الحــكم والإدارة والثقافة والمدنية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ، إذا التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والإسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجا لم يتم مثله فى غيرها من البلاد . ومن شواهد ذلك فى كتاب ابن جبير أن النورمان استخدموا ما وجدوه من أنظمة المسلمين فى حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعمــاء فى ترويض الناس على الحــكم النورمانى ، واستعملوا كثيرا من المسلمين على الوظائف ولا سيما فى البلاط الملــكى ، وسلــكوا أبناءهم فى الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم ينسوا أن يقرنوا ذلك بشىء من الضغط المــالى ، والتضييق على الحرية الشخصية لحمل من ضَعُفَ إيمانه على دخول المسيحية . وقد جاء ما كتبه ابن جبير فى يومياته بصدد صقلية مصدّقا لـكل ذلك ، وكان ملـكها غليامُ الثانى (William II) ، حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بَلَرْمة (Palermo) ، وهذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلغ اعتماده على المسلمين : " وشأن ملِـكهم هذا عجيبٌ فى حسنِ السيرة واستعمالِ المسلمين ، واتخاذِ الفتيان المجابيب ... ؛ وهو كثير الثقة

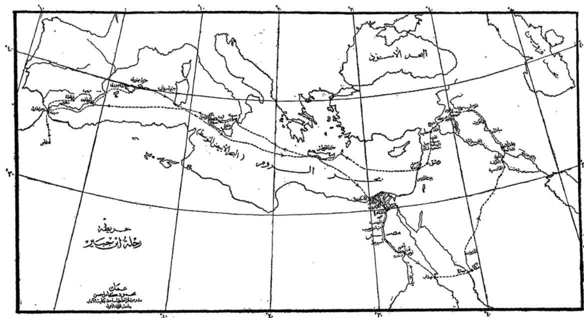
بالمسلمين ، وساكنٌ إليهم في أحواله والمهمّ من أشغاله ، حتى إن الناظر في مطبخته رجلٌ من المسلمين ، وله جملةٌ من العبيد السودِ المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته والمترسمون بخاصته ... ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربيـة ... وأما جواريه وحظاياهُ في قصره فمسلماتٌ كلُّهن . . . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيى بن فِتيان الطرّاز ... أن الإفرنجيـة من النصرانيات تقع في قصره فتعودُ مسلمة ، تعيدُها الجواري المذكورات مسلمة ... وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عَمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوّعا وتأجّراً ...» . على أنه لا يجب أن يؤدي ذلك الوصف الخاص ببلاط الملك إلى الاعتقاد بأن عامة المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالا من إخوانهم في البلاد المسيحية الأخرى ، فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايا ، والأسواق والرباع الإسلامية التي شاهدها ابن جبير بمدن صقلية ، قد ضرب النورمان على المسلمين أتاوة تُدفع مرتين في العام الواحد ، وحالوا بينهم وبين تملّك الأرض ؛ بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلُّهم أو أكثرُهم كاتمٌ إيمانه ، وكذلك نسوة القصر من المسلمات ، فإذا حان وقت الصلاة وهم في خدْمة الملك ، خرجوا أفذاذا من حضرته ليقضوا صلاتهم ، وهذا فضلا عن أنه لم يكن للمسلمين جمعة ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة مسينة التي أرسى عندها أولا ، ثم شفلودي وثرمة وبالرمة وعَلْقَمة وحصن الحمة وأطرابنش (Trepanes) . ثم أقلع من ميناء المدينة الأخيرة يوم الاثنين ٢١ ذي الحجة سـنة ٥٨٠ (٢٥ مارس سنة ١١٨٤) على ظهر سفينة جنوية إلى الأندلس ، فوصل قرطاجَنّة يوم الخميس ١٥ المحرم سـنة ٥٨١ ، وسافر منها إلى مرسية ثم لبرالة ثم لورقة ثم المنصورة

ثم قنالش (Caniles) ، حتى وصل إلى منزله بغرناطة ٢٢ محرم سنة ٥٨١ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٤) .

لم يقم ابن جبير بعد رحلته هـذه بالأندلس طويلا ، بل رحل إلى الشرق ثانية ، ويقال بصدد ذلك نقلا عن كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ، إنه لما شاع الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج ثانية ، فسافر من غرناطة فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ (٢٧ إبريل سنة ١١٨٩) . ولست أعلم من تفصيلات تلك الرحلة سوى القصيدة التى نظمها ابن جبير ليشكو بها إلى صلاح الدين عسفَ رجالِهِ وأمنائِهِ بالحجاج فى ميناء الإسكندرية ، وهى قصيدة طويلة فى ثلاثة وخمسين بيتاً ، وقد أشار فيها ابن جبير إلى الفتح الصلاحى لبيت المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه إلى غرناطة فى ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ (٥ سبتمبر سنة ١١٩١) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة إلى مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ؛ وانقطع إلى إسماع الحديث والتصوف وترويه الشعر . على أنه لم يقم بالمغرب طويلا تلك المرة أيضاً ، بل رحل إلى الشرق مرة ثالثة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وسبب تلك الرحلة — حسبما ورد فى كتاب الإحاطة أيضاً — أن زوجته عاتكة بنت الوزير الوَقّشى ماتت ، وكان كلفُه بها جمّا ، فعظم وَجْدُه عليها ، فرحل إلى مكة وجاور بها ، ثم انتقل عنها إلى بيت المقدس ، وتحوّل بعد ذلك إلى الإسكندرية ، فأقام يحدّث ويؤخذ عنه حتى توفى بهـا فى شهر شعبان من السنة المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .


خريطة
رحلة ابن جبير
عمل
محمود كامل حسن
البحر الأسود
بحر الروم
(البحر الأبيض المتوسط)
دمشق
بيت المقدس
مصر

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

رحلة ابن بطوطة

للدكتور محمد مصطفى زيادة
أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

محاضرة ألقيت بدار مكتب التبادل الثقافي للمغرب بمصر
في يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٩٣٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

رحلة ابن بَطُّوطة

تمتاز كتب الرحلات ، من دون الـكتب التى تتشوّف منها أحوال القرون الخالية وأخبارها ، بأنها تحْوى عادة صوراً لأحوال القوم الذين يجوس الرحالون خلالَ ديارِهم ومدنهم ؛ وقلما توجد هذه الصور فى كتب التاريخ ، إذ عملُ المؤرخ أن يكتب فى أخبار الدول ، وحروب الملوك ، وثورات الشعوب ، وما إلى ذلك من تجارب الأمم . وإذا كان لـكتاب رحلة ابن بطوطة ميزة ينفرد بها عن معظم كتب الرحلات ، فهى أنه ليس كتابا فى الجغرافية الوصفية للبلاد والجبال التى رآها الرّحالة فى أسفاره ، بل أنه فى معظمه نسخة نادرة من الصور التى ارتسمت فى ذهن ابن بطوطة عن الأشخاص والناس الذين ألقت بهم الصدَف فى طريقه ؛ فهو صفحة من التاريخ الاجتماعى الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، أكثر منه كتابا فى تقويم البلدان والجغرافيا ، مع العلم بأن ابن بطوطة لم يهمل تلك الناحية الجغرافية فيما كتب ، مما سيتضح فى المواضع المناسبة فيما يلى .

وُلد ابن بطوطة فى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) فى طنجة ، واسمه محمدُ بن عبد الله اللواتى الطنجى ؛ فهو لواتىّ أولا ، طنجى ثانياً ؛ وكان موطن أهله الأصلى بلاد برقة ومنطقة الحدود المصرية الغربية ، حيث كانت قبيلة لواتة إبان ظهورها فى كتب التاريخ . وقد أنتجت أسرة ابن بطُّوطة فى طنجة عدة قضاة ، فهو إذن وليدُ أناس عريقين فى الاشتغال بالعلوم الدينية ، أو — على حد التعبير الأوربى — من أبناء الطبقة الدينية العليا فى المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى .

ولذا فالراجح أنه نشأ فى بسطة من العيش ، وأنه درس على منهاج آبائه ، فتفقه وتأدّب ؛ ويضاف إلى هذا أنه مارس الشعر أيضاً ، وتعلم اللغة الفارسية فيما بعد بالهند . وشواهد ذلك كلّه فى بطن كتاب رحلته المعروف باسم "تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" .

أملَى ابن بطوطة هذا الكتاب على رجل اسمه محمد بن جُزَىّ الكلبى ، وهو كاتب بحاشية السلطان أبى عِنَان المرينى ٧٤٩ — ٧٥٩ هـ (١٣٤٨ — ١٣٥٨م) بفاس حيث كانت عاصمة بنى مرين ؛ وكان ابن بطُوطة قد نزل بها بعد أن ألقى عصى التسيار وَجَوْبِ البلاد ، فانتهى من كتابته سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) . ويوجد بعض هذه النسخة التى خطها ابن جزى بيده بباريس ، تحت رقم ٩٠٧ ، فى ملحق فهرس الكتب العربية بالمكتبة الأهلية (Bib. Nat. Fonds Arabe, Ms. No. 907) .

ظلّ كتاب ابن بطوطة مخطوطاً حتى اهتم بطبعه ونشره المستشرقون كالمعتاد ، فلهم الفضل وحقّ علينا الشكر . وقد عثر أحدهم أولا ، وهو السائح بوركهارت (Burckhardt) ، على مختصرٍ لها ؛ ثم بحث بعده كوزجارتن (Kosegarten) ، فوجد نسخة أخرى تَرْجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى بلاد إفريقية وفارس وبلاد التتر والجزائر ، ونشرها سنة ١٧٨١ م . وفى ١٨٢٩ ترجم القس صموئيل لى (Rev. Samuel Lee) قسما كبيراً منها إلى اللغة الإنجليزية ، وطبعه فى لندن ؛ وبعد ذلك قام العالمان دى سلان (De Slane) ، وإدوارد ديلوريبه (Edward Dulaurier) ، فترجم كل منهما قسما من الرحلة فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٧ م . ولبث المستشرقون مع هذا ينقِّبون ويبحثون حتى أتوا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقوبل بعضها ببعض ، وقورنت متونها ، وطبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٩ ، فى أربعة أجزاء ومقدمة علمية طويلة ، بتحقيق العالمين دفريمرى (Defrémery) ،

وسانجوينتى (Sanguinetti) . وبعد ذلك كله ، بل ومن هذه الطبعة البارسية الكاملة طبعت الرحلة فى القاهرة طبعتين عربيتين ، وكل منهما فى مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ — ١٨٧٥ ، والثانية سنة ١٩٠٤ ، ولم يفكر أحد القائمين على ذلك — أو لم يستطع — أن يترجم المقدمة أو حواشى المتن إلى العربية . ثم طبع الجزء الخاص بالهند والصين من رحلة ابن بطوطة فى هامبورج مترجماً إلى اللغة الألمانية ، سنة ١٩١١ — ١٩١٢ ، بقلم المستشرق مزيك (Mzik) ؛ وقد ترجمت الرحلة كلها إلى التركية أيضاً باسم "تقويم وقايع" ؛ وهذا عدا ما قام به كولى (Cooley) ، ودفيك (Devic) ، وهيج (Haig) ، ودلافوس (Delafosse) ، وماركات (Marquart) ، وفراند (Ferrand) ، ويول (Yule) ، وكورديه (Cordier) ، من بحث وشرح وترجمة لأجزاء معينة من هذه الرحلة الزاخرة . وأخيراً نشرت وزارة المعارف المصرية مختارات منها باسم "مهذب ابن بطوطة" فى جزءين ، وقام على نشرها أحمد العوامرى بك ومحمد جاد المولى بك ، سنة ١٩٣٤ . وقبل ذلك بخمس سنوات نشر الأستاذ جب (Gibb) ، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة أكسفورد ، مختصراً جديداً بحواش علمية دقيقة باللغة الإنجليزية ، وقد أشار فى مقدمته التحليلية إلى إزماعه نشر الرحلة كاملة مشروحة بالحواشى فى المستقبل القريب .

أما ابن بطوطة فكان غرضه الأول من رحلته أن يؤدى فريضة الحج عن طريق مصر ، غير أن سرعة تأثره بأقوال من زارهم من أولياء مصر — على حد قوله — جعلته يفكر مليا فى الرحلة أيضا إلى غير البلاد الحجازية ؛ ثم أملت عليه ظروف طارئة أن يتخذ طريقا غير طريق الحج المعتاد كما سيلى ، فرأى من بلاد الشرق الأدنى ما حبب إليه استطلاع بلاد الشرق الأقصى أيضا ، ولم ينته من رحلته هذه حتى شاهد جميع البلاد الإسلامية فى آسيا ، بل زار القسطنطينية

وبجزيرة سيلان وبنجالة وجاوة والصين ؛ وقد يكون من المستحسن أن نلم بأحوال تلك البلاد جميعا قبل أن نصاحب ابن بطوطة إليها ، لنكون على بينة ، ولنستطيع تقدير هذا الرحالة الجوّال تقديرا جديرا به .

كان العالم الإسلامى فى القرن الثامن قد اطمأن إلى حال جديدة بعد أن أحدث المغول به ما أحدثوا : من إزالة الخلافة العباسية من بغداد ، ومن قَذْف العناصر التركية من جوف الدولة الإسلامية إلى أطرافها ، مما أدى إلى فتوح ودولٍ إسلامية جديدة فى الهند وغيرها . وكان محور الارتكاز السياسى والثقافى بين المسلمين شرقا وغربا قد تحوّل إلى القاهرة التى صارت مقرّ الخلافة العباسية ، وملجأ اللائذين من المغرب والأندلس بسبب اضطراب الأمور بها ؛ وأضحى سلاطين المماليك يفرضون لأنفسهم مكانا ساميا على ملوك العالم الإسلامى ، باعتبارهم حماةُ الخلافة والمتمتعُون ببيعتها . وكانت دولة المماليك فى النصف الأول من ذلك القرن قد بلغت الأوج ، وامتدت حدودها شمالا حتى قيلقية ، وجنوبا إلى ما وراء الحجاز ، وغربا إلى إفريقية (أى تونس) ، وشرقا إلى الفرات ؛ وهذا هو عصر الناصر محمد ابن قلاون . وفى العراق وفارس كانت دولة إيلخانات المغول الذين أسلموا حديثا ؛ وفى البلاد الشمالية حتى نهر إتِل (الفلجا) كانت الدولة المغولية الإسلامية التى عرفت باسم القبيلة الذهبية ، كما كانت الدولة المغولية الثالثة فى بلاد ما وراء النهر حتى الصين ؛ وفى الهند كانت الدولة الإسلامية فى دلهى قد امتدت إلى معظم شبه الجزيرة . وحول تلك الدول الإسلامية العظمى كانت دويلات مبعثرة فى آسيا الصغرى ، وأفغانستان ، وشواطئ المحيط الهندى ، وأواسط غربى إفريقية حيث كانت دويلات الكانم والبرنو ومالّى والتكرور . ويكمّل هذه الصورة الدولُ الإسلاميةُ بالمغرب : وهى دولة الحفصيين بتونس ، وكان امتداد مملكتهم من الجزائر الحالية إلى طرابلس ؛ ثم الدولة الزِيّانية فى المغرب الأوسط ؛ ثم دولة

بنى مَرِين فى المغرب الأقصى ، وكان سلطانها أبو عنان (٧٤٩ — ٧٥٩ هـ ، ١٣٤٨ — ١٣٥٨ م) هو الذى استقر ببلاطه ابن بطوطة بعد أسفاره الطويلة ، وهو صاحب الفضــل فى تكليف ابن جزى بتدوين ما لدينا الآن من أخبار تلك الأسفار .

على أن ابن جزى وحده قمين بفضل ينفرد به ، فهو صاحب المقدمة والخاتمة فى كتاب رحلة ابن بطوطة ، وهو القائم على نشرها ، بمعنى أنه هو الذى تولى تلخيصها والنظر فى أبوابها وأقسامها وتحقيقَ بعضٍ ما سرده عليــه ابن بطوطة من أخبار البلاد ووصفها . وقد رجع ابن جزى من أجل ذلك إلى المشهور من كتب الرحلات فى عصره ، ولا سيما رحلة ابن جبير ، فنقل منها كثيرا . وليس هــذا مما يقلل من قيمة رحلة ابن بطُّوطة ألبتة ، فإن مقارنتها بغيرها من كتب الرحلات وهى فى دور الصياغة الأولى قد جعلها بمنجاة من كثير من الغلط والنقد والشك ، على أنها لم تنج من هــذا أو ذاك فيما بعد بسبب غموض أسماء بعض البلاد والمعابر التى جازها ابن بطوطة فى أسفاره .

خرج ابن بطوطة من طنجة فى رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونية ١٣٢٥ م) للحج عن طريق مصر ، وسنّه وقت ذاك اثنتان وعشرون سنة ؛ ثم اتســعت دائرة أغراضه وجَوْلاتِه ، فظلّ فى رحلته هذه أربعة وعشرين عاما تقريبا ، زار فى أثنائها معظم بلاد العالم الإسلامى ، ورجع إلى وطنه سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . غير أنه لم يقم ببلده إلا قليلا ، بل رحل عنها مرة إلى الأندلس ، ومرة أخرى إلى السودان الغربى ؛ وما زال يطوف بالبلاد حتى انتهى به المطاف حوالى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) ، فأقام بفاس حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) .

وإذَن فمن المستحيل علينا أن نُلم هنا إلمامة فقط بأسماء البلاد والأقاليم التى جاس خلالها ابن بطوطة سنوات كثيرة ، بل سنقف معه حيث يجب الوقوف ،

لننظر إلى الحوادثِ الدالةِ على شخصه ، وإلى الصورِ التى صوّرَ بها بعض البلادِ والدول التى حلا له أن يفيض فى أخبارها .

مرّ ابن بطوطة فى سفره الأول إلى مصر ببلادِ الجزائرِ وتونس وطرابُلس الغرب ، ووصل الإسكندرية فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٦ هـ (إبريل ١٣٢٦ م) ، فقضى فى ذلك الجزء الأول من رحلته سنةً تقريبا ؛ ولا عجب من هذا التمهل ، فقد تزوّج فى أثناء ذلك مرّتين ، وطلّق مرة واحدة فقط . وكان ممن زارهم ابن بطوطة من مشاهير الإسكندريين الشيخُ الزاهدُ بُرهان الدين الأعرج ، وقد أقام عنده ضَيْفا ثلاثة أيام من مدة إقامته بالإسكندرية ؛ وربما تَوَسَّم فيه برهان الدين حبَّ السياحة والجولان ، فأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين أن يزور أفرادا سمّاهم له . ولم يكن حينئذ قد خَطَرَ بنفس ابن بطوطة — على حد قوله — أنه سيتوغل فى تلك البلاد القاصية ؛ غير أنه يظهر أن هذا الحديث المبروك ، مع رجل عارفٍ لبلاد العالم وهو زاهد فيها ، حرّك فى قلب الشاب ابن بطوطة عزما على زيارة جميع البلاد الإسلامية ، وأن هذا العِزم قَوِىَ فى نفسه بعد تجاريبه أثناء السفر إلى القاهرة . ذلك أنه زار فى طريقه إليها أحدَ الأولياء الصالحين ، واسمه أبو عبدِ الله المرشدى ، وكان مقيما بمنية بنى مُرشد قبالة فُوّة على النيل ؛ فرأى ابن بطوطة فى منامه وهو عنده أنه طارَ على جناحِ طائر عظيم إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وَقَصَّ رحالةُ المستقبل رؤياه على الشيخ ، فَفَسَّرها له بأنه سيزورُ مكةَ واليمنَ والعراقَ وبلادَ التركِ والهند ، وأنه سيلقى بالهند عالما من علماء المسلمين سماه له .

ومهما يكن من شىء أو شك فى تلك الأحلام والنبؤات ، التى قد يقال إنها وُضِعت وضعاً كأسباب مباركة لرحلات ابن بطوطة ، فالواضح من تنقلاته — ولما يصل القاهرة بعد — أنه ن عازما على التجول فى البلاد فضلا عن الحج .

وبرهان ذلك تمضيته سنة كاملة فى الطريق من طنجة إلى الإسكندرية ، وتعريجه فى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة على المحلة الكبرى والبرلس ودمياط وتنيس وفارسكور وأشمون الرمان وسمنود وغيرها من مدن الريف بالدلتا .

وقد جاء فى وصف ابن بطوطة لمدينة دمياط أنها كانت مدينة حربية مسوّرة ، " وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها ، إلا بطابع الوالى ، فمن كان من الناس معتبرا طُبع له فى قطعة كاغد يَسْتَظْهِرُ به لحُراس أبوابها ، وغيرُهم يُطبع على ذراعه فيستظهر به " ؛ وهذه هى الباسبورت ، أو جواز السفر ، أو ورقة الطريق فى العصور الوسطى فى الإسلام .

أما وصفه لمدينة القاهرة فيقصر عن وصف ابن جبير لها بكثير ، على أن ابن بطوطة قد أورد فى أثنائه صوراً لبعض البارزين من أمراء الدولة المملوكية فى أواسط عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون ، كما أورد قصة تدل على صلابة هذا السلطان فى كل ما يصدره من أمر ، وفحواها أن أمَرَ السلطانُ بجلوس قضاة القضاة الأربعة فى حضرته بدار العدل على ترتيب استحدثه ، فلما امتنع قاضى الحنفية عن شهود المجلس أنفة من ذلك التصرّف ، أمر السلطان بإحضاره وإقعاده حسب الترتيب الجديد .

وترك ابن بطوطة القاهرة إلى عيذاب ، وكان متملّكها من العرب ويعرف بالحَدْرَبى ، وللسلطان الناصر عليه سيادة وحماية ، يؤدى من أجلها ثُلُثَ مَجْبى البلد للخزانة السلطانية . غير أن الحدربى كان إبان وصول ابن بطوطة إلى عيذاب يطارد جنود الناصر عن عيذاب ، فتعذّر سفرُه منها إلى جُدّة ، فعاد أدراجه إلى القاهرة ، وقصد الحج عن طريق الشام .

وفى الطريق إلى الشام نزل ابن بطوطة ببلدة قَطْيَا بشبه جزيرة طورسينا على طريق السكة الحديدية إلى فلسطين الآن ، وكانت قطيا وقت ذاك ثغراً بريا

هاما ، "ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين".

وهذه العبارة الأخيرة فيها التفاف ، إذ تدل على أنه حتى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦م) لم تكن العلاقات السياسية بين دولة إيلخانات المغول بالعراق و بين دولة المماليك قد تحسّنت ، وأنّ الجواسيس كانت منبثة فى كل من مصر والعراق لمعرفة نوايا الدولتين نحو الأخرى ، وهذا برغم المعاهدة القائمة بينهما منذ أوائل حكم إيلخان أبى سعيد بن خدابندا (٧١٦ — ٧٣٦ هـ ، ١٣١٧ — ١٣٣٤ م).

وأخذ ابن بطوطة يتنقل بين بلاد الشام من غزّة إلى حلب ، مع أنه كان يقصد دمشق فقط ، للذهاب منها إلى الحجاز مع ركب الشام ؛ فزار كثيرا من البلاد حتى أقصى الشمال ، ثم ذهب أخيرا إلى دمشق ، وخرج إلى الحجاز مع الركب الشامى فى شوال سنة ٧٢٦ هـ (سبتمبر ١٣٢٦ م) ؛ وفى ذلك دليل أيضا على أنه كان يريد الرحلة والحج معا .

هذا ويوجد فى ثنايا ما أملاه ابن بطوطة بصدد بلاد الشام شرح للسبب المباشر الذى من أجله اتبع السلطان الناصر بن قلاون سياسة العداء ضد دولة إيلخانات المغول بالعراق ، مع أن خطرَها كان قد زال تماما عن دولة المماليك ، كما يوجد أيضا السبب المباشر الذى من أجله انتهى الأمر بصلح بين الطرفين كما تقدّم . ذلك أن نائب حلب ، واسمه قراسنقر ، كان قد هرب مع بضعة من أمراء المماليك إلى إيلخان المغول خدا بندا سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) ، خوفا من نقمة السلطان الناصر عليه لريبه فى إخلاصه ، برغم ما عرفه من سابق خدماته ، وقد شرح المؤرخ دوسون (D'Ohsson) ذلك كله شرحا وافيا فى كتابه تاريخ المغول . وكان السلطان الناصر يبعث الفداوية إلى العراق لاغتيال هذا الأمير ، فلم يظفروا به . فلما مات خُدَابندا ، وَوَلِى ابنه أبو سعيد ، فرّ كبيرُ أمراء المغول

بفارس واسمه جُوْبان إلى بلاط الناصر ، ووقعت المراسلة بين الملكين واتفقا على أن يقتل كلٌ منهما الأمير اللائذ عنده . فلما انتهى ذلك وَقعَ الصلح ، وانتهى النزاع الطويل بين الدولتين ، ماعدا ماأشار إليه ابن بطوطة من بقايا عدم الثقة بينهما ، مما دعا إلى وجود الجواسيس فى بلاط كل منهما .

ومما رَوَاه ابن بطوّطة بصدد الشام أنه رأى ابن تيمية بدمشق ، وقد وصفه بأنه "كبير الشام ، يتكلّم كثيرا فى الفنون ، إلا أن فى عقله شيئا" ؛ وقصة الشيخ ابن تيمية طويلة ، ولمن يريد التعرف عليها أن يذهب أولا إلى ترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية .

وقد حج ابن بطوطة وزار المدينة النبوية ، ووصف بلاد الحجاز ومعالم مكة والمدينــة وعادات أهلهما ومشاعر الحج ، مما لا يزيد عما فى ابن جبير ، كوصف خطيب الجمعة ، وشرح عادة التهنئة فى أول الشهور .

ثم ترك ابن بطوطة الحجاز فى شهر ذى الحجة سنة ٧٢٦ هـ (أكتوبر ١٣٢٦م) ، مع الركب العراق ؛ على أنه لم يذهب إلى بغداد مباشرة ، بل ترك الركب عند النجف ، وعرج جنوبا بشرق إلى واسط ثم إلى البصرة والأبلة .

ولابن بطوطة بصدد البصرة حديث لطيف : ذلك أنه شهد بها صلاة الجمعة ، ولاحظ أن الخطيب لحن فى خطبته لحناً كثيراً ، وراعه طبعاً أن البصرة التى انتهت إلى أهلها رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلهــا إمامه الذى لا يُنكر سبقُه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دءوبه عليها . غير أن هذه الملاحظة تدعو إلى الالتفات ، فكتاب رحلة ابن بطوطة ، كما كتبه ابن جزى ، لم يخل من أخطاء نحوية ، فضلا عن احتوائه على تعبيرات غريبة ، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء ؛ فهل يكون معنى هــذا أن ابن بطوطة لم يقرأ نص رحلته بعد إتمامها ، ليصلحها و يضبطها ضبطاً صحيحاً ؟

ثم ذهب ابن بطوطة من الأبلة إلى أطراف فارس ، فزار من مدنه تُسْتَرْ وشيراز وإصفهان ، وفى وصفه لهذه البلاد ما يدل دلالة واضحة على أنه كان يريد بتعريجاته هذه أن يزور مشايخ العصر وقبور السلف الصالح . ثم رجع إلى العراق ، فنزل بالكوفة ، ورحل منها إلى بغداد ؛ وقد وافق وصوله إليها وجود إيلخان أبى سعيد بها ، فاتفق له أن يرى موكب هذا السلطان ، وأن يصفه لمن يريد مقارنة مواكب المغول بمواكب الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك بمصر ، كما أوردها القلقشندى فى الجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى .

وأقام ابن بطوطة بالعراق شهرين حتى وافى موعد رحيل الركب العراقى إلى مكة ، وسافر فى تلك الأثناء إلى تبريز والموصل ونصيبين وماردين . ثم ترك العراق أخيراً إلى مكة ، فحج ثانية ، وأقام مجاوراً بمكة سنة ، فحج ثالثة . ثم رحل سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) إلى اليمن بحراً عن طريق سواكن ، ولم يكن قد ركب البحر قبلها ؛ وزار زَبِيْد وصنعاء وعَدْن ، وقد أعجبه من نساء صنعاء أن "للغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوّجه كما تفعله نساء المغرب ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له حتى يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ، وإن كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهن لايخرجن عن بلدهن أبداً ، ولو أُعطيت إحداهن ما عسى أن تُعْطَاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل" . غير أن ابن بطوطة لم يعقب على هذا بأنه تزوج هناك ، مع أن هذا الوصف لا يتأتى إلا لمن خالط أهل البلاد مخالطة تامة . وقد قابل ابن بطوطة ملك اليمن بصنعاء ، وهو السلطان نور الدين على بن رسول ، ووصف بلاطه وصفاً يهم المشتغلين بتاريخ اليمن ، لشبهه الكثير ببلاط دولة المماليك بمصر .

ثم عبر ابن بطوطة البحر إلى بلدة زَيْلَع بالصومال الإنجليزى الحالى ، ووصف

تلك البلدة بأنها " أقذر مدينة فى المعمور ، وأوحشها وأكثرها نتناً " ، بحيث أنه اختار المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم يبت بالمدينة لقذرها . ثم سافر إلى مَقْدَشُو عاصمة تلك البلاد حين ذاك ، وكان سلطانها يسمى عندهم الشيخ ؛ وهنا تتجلى قيمة رحلة ابن بطوطة من حيث وصفه لتلك البلاد الإسلامية النائية ، التى يستشف منها القارئ مكانة الدولة المصرية بين ملوك العالم الإسلامى فى ذلك العصر .

ثم ركب ابن بطوطة البحر من مقدشو إلى كُلْوَا على ساحل إفريقية جنوبى زنزبار الحالية ، وتركها بالبحر إلى مدينة ظَفَار بأطراف اليمن الشرقى ، حيث رأى الأغنام والإبل وكافة السائمة تعيش على سمك السردين الذى يكثر هناك ؛ ويلاحظ أن الدواب تعلف بذلك السمك فى تلك البلاد حتى الآن ، كما شاهد زميل لى بكلية الآداب فى سفره حديثا إلى بلاد اليمن .

ثم رحل ابن بطوطة إلى عمان ؛ وسافر منها إلى هومز وسيراف ، وعبر الخليج الفارسى من هناك إلى القُطَيف — أو القَطِيف — باليمامة ، وعاد من هناك إلى مكة صحبة ركب الحاج اليمانى ، وكان ذلك فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد حج فى تلك السنة السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وليت ابن بطوطة زاد على هذا الخبر شيئاً من وصف هذا السلطان الذى يعتبر حكمه ذروة عهد الدولة المملوكية بمصر ، على أن كتباً أخرى قد جاءت بتفصيلات ضافية فى وصف هذا السلطان وأعماله ، ولا سيما النويرى وبيبرس الدوادار .

ليس ثمت حاجة ، بعد تعقب أسفار ابن بطوطة حتى هذه المرحلة ، إلى البحث عن شاهد جديد لندلل به على أنه كان جَوّاب آفاق وحِلف أسفار ، وبحاثة عن الأولياء والمشايخ . ولو وقف ابن بطوطة عند هذا الحد من أسفاره ، لظلّ كتابُه كجميع كتب الرحلة مرجعاً هاما لمعرفة الأحوال الاجتماعية فى جزء

كبيز من العالم الإسلامى فى القرن الثامن . ولكن ابن بطوطة لم يقف عند هذ القدر من السفر ، ولا بد أنه قرر حوالى ذلك الوقت رؤية بقية العالم الإسلامى ، ويستدل على ذلك — بسهولة — من حركاته وسفراته الغريبة ، إذ سافر من مكة إلى قرية العطوانى على النيل قبالة إدفو بالصعيد الأعلى ، ورحل منها عن طريق بلبيس إلى الشام ، حتى وصل اللاذقية . ثم ركب البحر من اللاذقية إلى العَلاَيا ، وهى بالساحل الجنوبى لشبه جزيرة آسيا الصغرى ، وكانت هذه المدينة حينذاك مشتى لسلاطين السلاجقة الروم . وقد ضرب ابن بطوطة فى أرجاء آسيا الصغرى وزار معظم مدنها الكبرى ، ومنها قونية وأقصرا ويزمير ، وبُرْصا عاصمة الدولة العثمانية الناشئة ، وقابل سلطانها أرخان بن عثمان . غير أن أهمية هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة ليست فى ذكر المدن ومَنْ عليها ، بل لأنها تعطى صورة للدولة العثمانية فى أيامها الأولى ، وتصف الدويلات والإمارات التركية بآسيا الصغرى ، قبل أن يجعل العثمانيون منها دولة واحدة ؛ وأهمية أخرى لهذا الجزء من رحلة ابن بطوطة أنها تصف نظام جماعات الفتوة والأخيّة فى تلك البلاد ، مما يدل على أن هذه الجماعات كانت ، بحسب ما ورد فى ابن بطوطة بصددها ، شبه جمعيات دينية خيرية لأبناء صناعة واحدة ، أو أبناء جهة واحدة ، فى بلد من البلاد .

ثم ترك ابن بطوطة آسيا الصغرى من ثغر صَنُوب (Sinope) إلى شبه جزيرة القرم بحراً ، وقد هاج البحر فى أول تلك السياحة . وكان ابن بطوطة ومسافر من أهل المغرب مثله بأبلوج (Cabin) الطارمة من السفينة ، وهو "القمرة" (Camera) الواقعة قرب السّكّان أو الدفة ؛ فطلب ابن بطوطة إلى صاحبه أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ورجع إليه واسترجع ، وقال له : "أستودعكم الله" .

غير أن المقاديرَ لَطَفَتْ ، ووصل ابن بطوطة إلى شاطئ القرم عند ثغر كافا التابع لجمهورية جَنَوَة ، وكان به أكبر أسواق الرقيق المملوكى فى العصور الوسطى . ثم زار مدينة القرم نفسها وآزاق ، ورحل منها إلى بلدة الماجر بالقوقاز ، وقصد بِشْدَاغ لزيارة سلطان تلك البلاد ، وهو السلطان محمد أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، نسبة إلى لون خيامهم و بيوتهم المموهة بالذهب. وقد حظى ابن بطوطة بالمثول بين يديه ، وزار خواتينه — أى زوجاته — الأربعَ ، وراقه منهن طبعا أنهن كنّ باديات الوجوه ، وحولهن الجوارى الصغار فائقات الجمال ، وكانت ثالثتهم — على حسب قول ابن بطوطة — بنت إمبراطور القسطنطينية أندرونيق الثالث (Andronicus III) ، واسمها بَيَلُون (Bayalun) ، وقد قدر له أن يسافر معها إلى القسطنطينية كما سيلى . على أن أهمية هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة ليست فيما وقع له من الحوادث العادية من تنقل وزيارات وتدوين أسماء المدن الداخلة فى حدود القبيلة الذهبية ، بل فى وصف عادات القوم وأحوالهم ، وترتيب البلاط السلطانى عندهم ، مما جعل رحلة ابن بطوطة مرجعا من الدرجة الأولى فى تاريخ تلك البلاد .

ورأى ابن بطوطة أن يوغل فى البلاد المجاورة والفرصة سانحة ، فزار مدينة بُلْغار على الشاطئ الأيسر لنهر إتِل (الفولجا) ، وهى عاصمة مملكة بلغاريا العظمى فى القرون الوسطى ؛ وأراد أن يذهب منها إلى سيبيريا التى سماها "أرض الظلمة" ، لكنه أضرب عن ذلك ، وعاد إلى بلاد أوزبك خان ، فأقام عنده مدة قليلة ، وزار فى أثنائها مدينة حاجى طرخان (أستراخان) ، على مصب الفولجا فى بحر قزوين .

ثم حدث أن رغبت الخاتون بَيَلون إلى السلطان أوزبك أن يأذن لها فى زيارة أبيها ، فنزل على رغبتها ، وأذن أيضا لابن بطوطة أن يصحبها لمشاهدة

القسطنطينية ؛ فسار فى ركبها برا ، واخترق البلقان عن طريق اختلط تعيينه على المحققين ، بسبب غموض بعض أسماء المدن التى ذكر ابن بطوطة أنه مرّ بها . على أن وصفه لمدينة القسطنطينية قد جاء صورة قيمة لتلك العاصمة البيزنطية قبل أن يغيّر العثمانيون بعض معالمها بعد فتحها . هذا ، وفى ثنايا ذلك الوصف لفظ واحد أضاء للمؤرخين الطريق لتفسير كلمة (Saracen) التى أطلقها الأوربيون على المسلمين حتى الآن تقريباً ؛ إذ يتضح من ابن بطوطة أن البيزنطيين كانوا يصفون المسلمين بلفظ "سرا كينو" ، وهو مأخوذ من لفظ "الشرقيين" ، وإن كان المسعودى يرى فى كتاب "التنبيه والإشراف" أنه مشتق من لفظ آخر . وقد أطلق المؤرخون فيما بعد لفظ (Saracen) على جميع المسلمين بالشرق والغرب . من غير أن يتبينوا أصله ، بل إنهم استعملوه فى الأدب الغربى أحيانا قليلة بمعنى الأجنبى .

ثم رجع ابن بطوطة من القسطنطينية بدون الخاتون بَيَلون ، إذ رغبت فى عدم العودة إلى زوجها ؛ ووصل إلى مدينة السَّرَا عاصمة السلطان أوزبك على نهر إتل . ثم سافر منها إلى خوَارزم ، فبخارى وسمرقند وتِرْمِذ ، وبلخ وَهَرَاة وطوس ، ونيسابور وغزنة وكابُل ، وجنانى على نهر السند بالهند . وكان وصوله إليها فى أوائل سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) ، أى أن ابن بطوطة ظل متنقلا حتى تلك المرحلة من أسفاره ثمانى عشرة سنة هجرية .

وقد لقى ابن بطوطة فى أوائل تجوّله بالهند الشيخَ الزاهد بهاء الدين القرشى ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبره الشيخ برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أنه سيلقاهم فى رحلته . ثم شاهد بمدينة أبوهَرَ (Abuhar) ، فى الطريق إلى دلهى ، عملية إحراق جثة الميت ومعه أرملته عند الهندوس ، وعلّق على ذلك بأن إحراق المرأة بعد زوجها "أمرٌ مندوب إليه غيرُ واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد

زوجها أحرز أهل بيتهـا شرفاً بذلك ، و نُسِبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشِن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة مُمْتَهَنة لعدم وفائها ، ولـكنها لا تُـكْره على إحراق نفسها " ؛ وقد أبطل الحكم الإنجليزى تلك العادة بالهند .

وصل ابن بطوطة أخيراً إلى دلهى عاصمة مملكة الهند الإسلامية ، وسلطانها يومئذ محمد شاه بن طُغْلَق ؛ وقد أفاض ابن بطوطة فى وصف ترتيبِ هذه المملكة وكَرَمِ سلطانها وتواضعِه ودفعِه للمغارم والمظالم وتحمسِه للجهاد ، ولم ينس أن يذكر أيضاً شغفه بإراقة الدماء لأدنى جريمة أو سبب ، وقتله لجميع من خالفه ، وإخلاءه مدينة دلهى من أهلها بسبب خطابات وصلته غُفلا وفيها سبه وشتمه .

وتولى ابن بطوطة منصب القضاء المالكى فى دلهى ، وما زال على تلك الوظيفة حتى سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، أى سبع سنين تقريباً ، ولذا جاء مادوّنه فى كتابه أضفى وصف لحاشية سلطان مسلم فى العصور الوسطى . ثم أرسله السلطان على رأس وفد لملك الصين بهدية ذكر ابن بطوطة مفرداتها ، فدلّنا بذلك على أنواع الطرف التى تبادلها ملوكُ آسيا فى ذلك العصر ، وكان كل من الوفد والهدية ردّاً على وفدٍ وهديةٍ مثلهما من الصين .

وقد خرج الوفد الهندى فى ١٧ صفر سنة ٧٤٣ هـ (يولية ١٣٤٢ م) ، ولم يكد ابن بطوطة يخرج مع ذلك الوفد من مدينة دلهى حتى أخذت به المقادير إلى حيث لم يحتسب . ففى مدينة كول ، وهى عَلِيْكَرة الحالية ، على مسافة مائة ميل فقط من مدينة دلهى ، بلغ الوفد أن عصابة من الهندوس قد نزلت ببلدة الجلالى القريبـة من كول وحاصرتها ، فأسرع رجال الوفد إلى نجدة البلدة ، ونشبت بينهم و بين العصابة معركة . أما ابن بطوطة فقد وقع فى أيدى بعض الهندوس من رجال العصابة ، فأخذوه وسلبوه جميع ما عليه ما عدا جُبّة وقميصا وسروالا ، ودخلوا به إلى غابة ، وانقطعت صلته بالوفد إلى الصين ، كما انقطع الأمل بوصول

ذلك الوفد مؤقتا ، إذ استولى اللصوص على متاعه . واستأسر ابن بطوطة رغبة فى النجاة من القتل ، وعزم على الفرار بدليل أنه قطع كُمى قميصه لكيلا يأخذه سجناؤه منهما إذا لاذ بالهرب ؛ على أنه خلص من أسره بسهولة فى مقابل جُبَّته التى أعطاها لحارسه ، وكان قد رشاه قبلا بالكُمَّين .

ولحق ابن بطوطة أخيراً بأعضاء الوفد إلى الصين ، فسار معهم حتى وصلوا جميعاً إلى قَنْدهار ، فركبوا منها البحر إلى قاليقوط ، إحدى محطات السفن الصينية بالهند . ورأى ابن بطوطة فى أثناء تلك السفرة البحرية على ساحل مُلَيبار (Malabar) معظم بلاد الفُلفُل والبهار والتوابل ، وأشار إلى أهميتها فى التجارة الدولية فى القرون الوسطى .

وقد رأى ابن بطوطة بثغر قاليقوط أنواعَ سفنِ الصين وعدّدها ، وذكر كيفية بنائها ، فجاء ما كتبه وصفاً لصناعة السفن الصينية لم يسبقه إليه كاتب فى العربية ، كشأن ابن جبير بصدد الجلاب فى البحر الأحمر . ولعل أبهى ما فى وصف ابن بطوطة للسفن الصينية قولَهُ إنه كان بتلك السفن ما يسمى الآن عند شركات الملاحة البحرية باسم "كابين دى لوكس" (Cabine de Luxe) ، وقد سماها ابن بطوطة بالمَصَارى ، وهذا نصه : "ويكون فيه [أى المركب] البيوت والمصارى والغرف للتجار ، والمصرية منها يكون فيها البيوت [الغرف] والسنداس [المرحاض] ، وعليها المفتاح ، يسدّها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مَصْريته ، فلا يَعْرِف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد" .

ثم نزلت بابن بطوطة وبالوفد الهندى وهديته النوازل مرة أخرى ، وذلك فى مرسى قاليقوط ، إذ تحطم المركب الذى كان به الهدية وسط عاصفة . وكان ابن بطوطة وقتذاك بالشاطىء ، ومتاعُه وغِلمانُه وجواريه بسفينةٍ أخرى غيرِ

التى تحطّمت ، فلما رأى بَحْريتها ما حل بالمركب الأول رفعوا قَلْعَهم وأقلعوا ، ومعهم جميع ما ملك ابن بطوطة ؛ فبقى منفرداً على الساحل ، وليس معه إلا فتى كان أعتقه ؛ ولما رأى الفتى ما حلّ بسيّده ذهب عنه أيضاً ، ولم يبق لدى ابن بطوطة سوى دنانير معدودة وسَجّادة .

لم يشأ ابن بطوطة أن يرجع إلى دلهى ليُعْلِم السلطان بما حدث ، فأقام بساحل مليبار شهوراً ، وانقلب جندياً مجاهداً فى خدمة سلطان مدينة هِنَوْر . ثم رجع إلى قاليقوط ، وَعَبر البحر منها إلى جزائر ذِيْبَة المَهَل ، وهى المعروفة فى الخرائط الحديثة باسم جزائر الملديف (Maldives Islands) ، وكان عليها سلطانةٌ اسمها خديجة بنت جلال الدين البَنْجالى . وأقام ابن بطوطة بتلك الجزائر ثمانية عشر شهراً ، وتزوّج من ربيبة السلطانة خديجة ، وتولى وظيفة القضاء على مذهب المالكى ، وعاش عيشة راضية . ثم تزوج من ثلاث نساء غير زوجته ربيبة السلطانة ، وله بصدد ذلك عبارة فكهة ، نصها "والتزوج بهذه الجزائر سهلٌ لنذارة الصداق ، وحسنِ معاشرةِ النساء ، وأكثر الناس لا يُسمى صَدَاقاً ، وإنما تقعُ الشهادة ، وتُعطى صداقُ مثلها . وإذا قدمت المركب تزوّج أهلها النساء ، فإذا أراد السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ، ولم أرَ فى الدنيا أحسنَ معاشرةً منهن" ؛ وهذا وغيره مما جاء فى رحلة ابن بطوطة بصدد تلك الجزائر وأهلها ، هو أول وصف معروف لها حتى الآن ، وليته أقام طويلا ليقص من أخباره بها أكثر مما فعل . غير أن تحمسه للإصلاح وتطبيق أحكام الشرع أوغر منه كثيراً من الناس ، فترك ذيبة المَهَل إلى جزيرة سيلان ، ليزور الجبل المعروف باسم قدم آدم عليه السلام ، وهو من مزارات الهند الشهيرة ؛ وقد زار ابن بطوطة بقربه مواضع منسوبة إلى حواء وإلى شيث بن نوح عليه السلام وإلى الخضر أيضاً .

ثم سافر ابن بطوطة أخيرا إلى بلاد المَعْبر ، وهى المعروفة فى الخرائط الحديثة باسم (Coromandel) ، أى الساحل الجنوبى الشرقى لشبه جزيرة الهند . وتحرّك منها إلى بَنْجالة فأسَام فشبه جزيرة الملايو ، فسومطرة بجزائر الهند الغربية ، فالصين ، حيث نزل بميناء الزيتون ، وهى تشوان شوفو (Ts'wan-chou-fu) الحالية . وأراد ابن بطوطة أن يؤدى الرسالة التى كلف بها من لدن سلطان دلهى ، على أنه لم يقابل خان المغول طوغان تيمور (٧٣٤ — ٧٧٣ هـ ، ١٣٣٣ — ١٣٧١ م) ، لغيابه عن عاصمته خان بالق (بكين الحالية) وقتئذ .

وليس لرسالة سلطان دلهى أهمية هنا ، إلا من حيث أن خبرها قد سهّل على ابن بطوطة التنقل فى بلاد الصين حتى وصل عاصمتها خان بالق ، على أنه لم يَرَ من تلك البلاد الشاسعة سوى المدن القريبة من ساحلها الطويل . ومع هذا فقد أفاض ابن بطوطة فى وصف ما رآه من أحوال أهل الصين من المسلمين والوثنيين وصفاً لم يَتَسَنَّ لغيره من الرحالة سوى القليلين أمثال سليمان التاجر العربى المشهور ، وماركو بولو الإيطالى قبله ، ومن ذلك أن "أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يَتَحَصَّل ببلادهم من النقود المعدن يسبكونه قطعاً ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعلُ الصينىُّ القطعةَ منها على باب داره . وإنما كان بيعهم وشراؤهم بما سماه ابن بطوطة باسم "قطع الكاغد" ، أى قطع الورَق ، وهى أشبه ما يكون بالبنكنوت فى العصر الحاضر ؛ وكانت القِطعة من ذلك الورق بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وإذا تمزقت تلك الأوراق أو بليت فى يد إنسان حملها إلى دار السكة ، ليأخذَ عوضَها جُدُداً ، ولا يُعطِى على ذلك أجرة . على أن ابن بطوطة مخالف هنا لما فى رحلة ماركو بولو ، حيث ورد أن البنكنوت البالى كان يستبدل بالجدد فى مقابل ثلاثة فى المائة من قيمته . ولابن بطوطة بصدد الصين وأهلها ملاحظات

و إشارات يضيق عنها نطاق هذه النظرة السريعة ، ومنها أنه وجد بكل مدينة نزلها محلة مستقلة للمسلمين ، ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد ، وأن أهل الصين عامة لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس ، فترى التاجر الكبير منهم ، الذى لا تحصى أمواله كثرة ، وعليه جبة قطن خشنة .

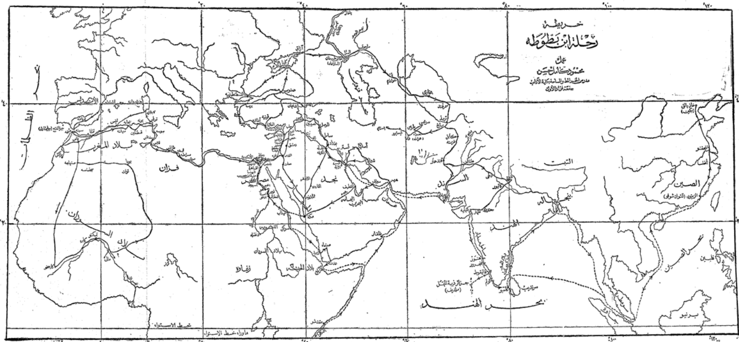
ثم ترك ابن بطوطة الصين إلى سومطرة ، ومنها إلى ساحل مُليبار . غير أنه لم يعرِّج على دلهى خوفا من سلطانها صاحب الهدية المفقودة ، والرسالة التى لم تُبَلَّغ ؛ بل سافر إلى هُرْمُزْ ، ومنها إلى بغداد ودمشق ، ومنها إلى غزة فدمياط . وقد أقام ابن بطوطة بمصر قليلا ، ثم حج حجته الرابعة ، وكان ذلك فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) .

عاد ابن بطوطة بعد ذلك إلى وطنه ، ويظهر أن سبب رجوعه أن سلطانا جديداً قام بمراكش ، وهو السلطان أبو عنان بن أبى الحسن المرينى ، وأن ابن بطوطة أراد أن يمكن لنفسه فى البلاط الجديد . غير أنه من الغريب أن يعرج ابن بطوطة فى طريقه على جزيرة سَرْدانية بالبحر المتوسط ، مع أنه كان فى مقدوره السفر برا حتى مراكش ؛ وقد وصل إلى فاس ، وأقام ببلاط السلطان أبى عنان .

لم يقم ابن بطوطة بفاس طويلا ، إذ وجد فى نفسه نزوعا إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، رغبة فى أن يكون له على حد قوله "حظ من الجهاد والرباط" ، ضد ألفونس الحادى عشر (Alphonso XI) ملك الدولة المسيحية بقشتالة (Castile) ؛ وكانت هذه الدولة قد أخذت تنمو نموا مطرداً على حساب الدولة الإسلامية بغرناطة ، وسلطانها وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٤ — ٧٥٥ هـ ، ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م) . وكان ألفونس الحادى عشر قد توفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ، وهو على حصار جبل الفتح (جبل طارق) ، وقد وصل ابن بطوطة

بعيد ذلك بقليل . على أن السبب الذى حدا به إلى هذا السفر — أكبر ظنى — هو أنه رغب أيضاً فى أن يزور ما تبقى عليه من البلاد الإسلامية ، بدليل أنه لم يقم بالأندلس طويلا حتى يستطيع الجهاد والرباط ضد المسيحيين ، وأنه لم يزر قصر الحمراء بغرناطة مع ذهابه إليها ، وأنه أخذ يتنقل من بلد إلى بلد بالأندلس ليصفها وصف السائح المغذّ فى السفر ، وأنه لم يستقر بفاس سوى فترة قصيرة بعد رجوعه إليها من الأندلس ، بل قام برحلة ثالثة ليرى جهة أخرى من البلاد الإسلامية .

وكانت تلك الرحلة الثالثة إلى بلاد السودان وغربى إفريقية ، فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) ، وأوغل فى الصحراء الكبرى مع قافلة للتجار من سِجِلْماسة حتى وصل مدينة "مالى" عاصمة الدولة الإسلامية المعروفة بهذا الإسم ، ورأى نهر النيجر ، وظنه جزءاً من النيل . ثم زار تَنْبُكْتو (تمبكتو) ، وأخذ فى التجول ببلاد السودان الغربى وواحاته حتى وصل تَكَدّا ، وهى وقتئذ أكبر مدن أقليم الطوارج من البربر . وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبى عنان يطلب إليه الحضور إلى مراكش ، فامتثله ووصل فاس سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣م) ، فأقام بها حتى وفاته . وبذلك يكون ابن بطوطة قد زار جميع البلاد الإسلامية ، وهذا فضلا عن غيرها من البلاد المسيحية كالبلقان والقسطنطينية ، والبلاد الوثنية بساحل المليبار وجزيرة سيلان والصين ، فهو بحق رحالة المسلمين .



خريطة
رحلة ابن بطوطة
عمل
محمود كامل حسين
مدرس الجغرافيا والمساحة بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول
بلاد المغرب
فزان
نجد
السند
التبت
الهند
الصين
بحر الهند
برنيو
خط الاستواء
ماوراء خط الاستواء

جروب
مَعين التاريخ
لأهل التارِيخ